وصايا الآباء للأبناء

أو

«الدروس الأولية في الأخلاق المرضية»

تأليف

الشيخ محمد شاكر

شيخ علماء الإسكندرية سابقاً

(ولد ١٢٨٢هـ - توفي ١٣٥٨هـ)

راجعه وخرج أحاديثه

عبد القادر الأرناؤوط

التصوير:



١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م


وصايا الآباء للأبناء

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد : فهذه « وصايا الآباء للأبناء » أو « الدروس الأولية في الأخلاق المرضية » للعلامة الشيخ محمد شاكر رحمه الله ، وهو علم من أعلام العصر ، نقدمها لطلاب العلم في وقت أحوج ما يكون طالب العلم إليها ، جمع فيها مؤلفها نصائح الأستاذ لتلميذه ، والوصية بتقوى الله عز وجل ،وحقوق الله تعالى ، وحقوق رسوله ﷺ ، وحقوق الوالدين ، وحقوق الإخوان والأصدقاء، وذكر آداب طالب العلم ، وأدب المطالعة والمذاكرة والمناظرة مع طلاب العلم ،

وآداب الرياضة والمشي في الطرقات ، وأدب المجالس وأدب المحاضرة ، وآداب الطعام والشراب ، وآداب العبادات وآداب المساجد ، وفضيلة الصدق ، وفضيلة الأمانة والعِفَّة ، وما يتعلق بالمروءة والشهامة وعِزَّة النفس، وما يتعلق بالغيبة والنميمة والحقد والحسد والكبر والغرور ، وما يتعلق بالتوبة والخوف والرجاء والصبر مع الشكر ، وذكر باباً في فضيلة العمل والكسب مع التوكل والزهد ، وإخلاص النيّة لله تعالى في جميع الأعمال .

ثم ذكر أخيراً خاتمة الوصايا في عدة أمور لا بدَّ منها لطالب العلم، وهي أن يكثر من مدارسة لقرآن وحفظه والعمل به ، وأنه ينبغي أن يحاسب نفسه على تقصيره ، وأن يكثر من الابتهال إلى الله تعالى والدعوات الصالحات لنفسه ولوالديه ولجميع المسلمين الأحياء منهم والأموات .

هذا وقد ذكر المؤلف رحمه الله هذه الأبحاث مستدلاً عليها بالكتاب والسنة وأقوال العلماء المحققين ، وقد خرج أحاديثه تخريجاً سريعاً ، معتمداً على ما ذكره الحافظ السيوطي في « الجامع الصغير » وقد رجعت في هذه التخريجات إلى مصادرها فبينت مواطنها في كتب الحديث ، وحكمت عليها صحة وحسناً وضعفاً حسب القواعد المصطلح عليها عند أهل

هذا الفن ، ليكون طالب العلم على بينة من أمره ، في معرفة هذه الأحاديث النبوية الشريفة، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دمشق السبت ١٥ ربيع الأول ١٤١٣ هـ

١٢ أيلول ١٩٩٢ م

ترجمة الشيخ محمد شاكر

هو العالم الجليل والكاتب القدير ، مجدد الأزهر السيد الشريف الشيخ محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر بن عبد الوارث من آل أبي علياء من أسرة كريمة معروفة من أشرف الأسر وأكرمها بمدينة جرجا .

ولد بجرجا في منتصف شوال عام (١٢٨٢) هـ . وحفظ بها القرآن ، وتلقى مبادىء التعليم ، ثم رحل إلى القاهرة، إلى الأزهر، فتلقى العلم عن كبار الشيوخ في ذلك العهد ، ثم صار أميناً للفتوى سنة (١٣٠٧) هـ . ثم ولي منصب نائب محكمة مديرية القليوبية ، ومكث فيه نحو سبع سنين إلى أن اختير قاضياً لقضاة السودان سنة (١٣١٧) هـ . وهو أول من ولي هذا المنصب ، وأول من وضع نُظُم القضاء الشرعي في السودان على أوثق الأسس وأقواها ، ثم عين سنة (١٣٢٢) هـ شيخاً لعلماء الإسكندرية ، فوضع القواعد الثابتة لتنظيم المعاهد الإسلامية حتى تؤتي ثمرها ،

وتخرج للمسلمين رجالاً هداة يعيدون للإسلام مجده في أنحاء الأرض ، ثم عين وكيلاً لمشيخة الأزهر ، فبذر فيه بذور الإصلاح ، ثم انتهز فرصة إنشاء الجمعية التشريعية سنة (١٩١٣) م فسعى إلى أن صار عضواً فيها ، معيناً من قبل الحكومة المصرية ، وبذلك ترك المناصب الرسمية ، وأبى أن يعود إلى شيء منها ، ولم يخضع بعد ذلك لشيء من مغرياتها ، بل فضَّل أن يعيش حر الرأي والعمل والقلب والعلم ، وكانت له في الصحف جولات صادقة ، ومقالات نَيِّرة ، لا يزال صداها يدوي في أذهان كثير ممن عنوا بالأمور الاجتماعية ، وكان من أبرز سجاياه أنه صلب في دينه ، صلب في عقيدته ، صلب في رأيه ، شجاع غير جبان ، لا يرهب أحداً من الناس ، ولا يخشى إلا الله تعالى .

وكان قوياً في العلوم النقلية والعقلية ، ولم يصمد له أحد في مناظرة أو جدال لإبداعه في إقامة الحجج وإفحام المناظر ، لخصوبة ذهنه وتسلسل أفكاره ، وانتظامها على قواعد المنطق الصحيح السليم .

وفي آخر عمره أقعده المرض في منزله ، وألزمه الفراش ، إذ أصابه الفالج فاحتمله صابراً محتسباً ، راضياً عن ربه وعن نفسه ، موقناً أنه قام بما وجب عليه خير قيام نحو دينه ، ونحو

أمته ، منتظراً دعوة ربه لعباده الصالحين ﴿ يا أيَّتُها النفسُ المطمئنةُ ارجعي إلى ربِّك راضيةً مرضِيَّةً فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي ﴾ .

رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، توفي رحمه الله سنة (١٣٥٨) هـ الموافق (١٩٣٩) م ولابنه العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر أبي الأشبال المحدث المصري الكبير المتوفى سنة (١٩٥٨) م رحمه الله رسالة في سيرته سماها (محمد شاكر) علم من أعلام العصر .

انتهى بتصرف من ترجمة ولده العلامة أحمد محمد شاكر رحمه الله .

مقدمة المؤلف

الحمد لله ربّ العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأنبياء والمرسلين . وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فهذه « دروس أوّليّة في الأخلاق المرضيّة » وضعتها لطلبة العلوم الدينيّة . وقد ضمّنتها من الأخلاق ما يحتاج إليه طالب العلم في بداية أمره ، حتى إذا وفّقه الله للتّخلّق بها كان مرجوّاً أن ينفعه الله بعلمه ، وأن ينفع به كثيراً من خلقه ، والله وليّ الرّشاد،والهادي إلى الصراط المستقيم .

الدرس الأول

نصيحة الأستاذ لتلميذه

يا بُنَيَّ : أرشدَكَ الله ، ووفقك لصالح الأعمال ، إنَّك مِني بمنزلة الولد من أبيه .

يَسُرُّني أن أراكَ صحيحَ البِنْيَةِ ، قويَّ الإدارِكِ ، زكيَّ القلبِ ، مُهذَّبَ الأخلاقِ ، محافظاً على الآداب ، بعيداً عن الفُحْش في القَوْل ، لطيفَ المعاشرة ، محبوباً من إخوانك ، تواسي الفقراء ، وتُشْفِقُ على الضعفاء ، تَغْفِرُ الزّلاتِ ، وتعفو عن السيئاتِ ، ولا تفرِّطُ في صلاتك ، ولا تهملُ في عبادةِ ربك .

يا بنيَّ : إنْ كنتَ تَقبلُ نصيحةَ ناصح ، فأنا أحقُّ مَنْ تَقْبَلُ نَصِيحتَهُ .

أنا أُستاذُكَ ومعلِّمُكَ وَمُرَبِّي روُحِكَ ، لا تجد أحداً أحرص على منفعتك وصلاحك مِني .

يا بنيَّ : إني لك ناصحٌ أمينٌ ، فاقبل ما أُلقيه عليك من النصائح ، واعمل به في حضوري ، وبينك وبين إخوانك ، وبينك وبين نفسك .

يا بُنيَّ : إذا لم تعمل بنصيحتي في خَلْوَتك ، فقلَّما تحافظُ عليها بين إخوانك .

يا بُنيَّ : إذا لم تتَّخِذْني قُدْوَةً فبمن تقتدي ؟ ! وعلامَ تُجهِد نَفْسَك في الجلوس أمامي ؟ !

يا بُنيَّ : إن الأستاذ لا يحبُّ من تَلامِيذِه إلا الصالح المؤدَّبَ ، فهل يَسُرُّكَ أن يكون أسْتاذُكَ ومُرَبِّيكَ غيرَ راضٍ عنك ، ولا طامعٍ في صلاحك ؟

يا بنيَّ : إني أحبُّ لكَ الخيرَ ، فسَاعِدْني على إيصال الخير إليك بالطاعة والامتثال لما آمُرُك به من مكارم الأخلاق .

يا بُنيّ : الخُلُق الحَسَنُ زِينَةُ الإنسان في نفسه وبين إخوانه وأهلِ عشيرته ، فكُنْ حَسَنَ الخُلُق ، يَحترِمْكَ الناس ويحبُّوك .

يا بُنيَّ : إذا لم تُزَيِّن عِلْمَكَ بِكَرَمِ أخلاقك ، كان عِلْمُكَ أضرَّ عليك من جَهْلك ، فإن الجاهلَ معذورٌ بجهله ، ولا عذرَ للعالم عند الناس إذا لم يَتَجَمَّل بمحاسن الشِّيَم .

يا بُنيَّ : لا تعتمدْ على مراقبتي لك ، فإن مراقبتَك لنفسك أفضلُ وأنفعُ من مراقبتي لك .

يا بنيَّ : قال رسولُ الله ﷺ : « إن الله اسْتَخْلصَ هذا الدِّينَ لنَفسِهِ . وَلا يَصْلُح لِدِينكم إلا السَّخاءُ ، وَحُسْنُ الخُلُقِ ، أَلا فزيِّنُوا دِينَكُم بِهِما » . [1]

---

(١) رواه الطبراني عن عمران بن حصين . وأشار السيوطي إلى أنه حديث ضعيف .

أقول : ذكره الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٢٧/٣) و(٢٠/٨) وقال : رواه الطبراني في « الأوسط » وفيه عمرو بن الحصين العقيلي ، وهو متروك . فالحديث ضعيف جداً ، بل منهم من قال : إنه موضوع ، ولكن معناه صحيح ، فإن الدين لا يقوم إلا بالسخاء وحسن الخلق .

الدرس الثاني

في الوصية بتقوى الله العظيم

يا بُنيّ : إنَّ رَبكَ يعلمُ ما تُكِنُّهُ في صدرك ، وما تُعْلِنُه بلسانك ، ومُطَّلعٌ على جميع أعمالك ، فاتَّقِ الله ـ يا بنيَّ ـ واحْذَرْ أن يراك على حالة لا ترضيه .

احذر أن يَسَخطَ عليك ربُّك الذي خَلَقكَ ورزقك ووهبك العقلَ الذي تتصرَّف به في شؤونك . كيف يكونُ حالُكَ إذا اطَّلع عليك أبوك وأنتَ تفعلُ أمراً نهاك عنه ؟ أما تخشى أن يشدِّدَ عليك العقوبة ، فليَكُنْ حالُك مع الله كذلك ، لأنه يراكَ من حيثُ لا تراه ؟ فلا تُفَرِّط في شيء أمرك به ، ولاتَـمدُدْ يدك إلى شيء نهاك عنه .

يا بُنيَّ : إنَّ ربكَ شديدُ البطش ، شديد العقاب ، فاحذَرْه ـ يا بنيَّ ـ واتَّقِ غَضَبَهُ وَسَخَطه ، وَلا يَغُرَّنَّكَ حِلْمُهُ و « إن الله يملي للظَّالم ، حَتَّى إذا أخذَهُ لم يُفْلِتْهُ » [١] .

---

(١) هذا لفظ حديث شريف . رواه البخاري ومسلم والترمذي

يا بنيّ : إن في طاعة الله مِنَ اللَّذَّةِ والراحَة مالا يُعْرَفُ إلا بالتَّجْرِبة ؛ فيا بنيَّ : استعمل طاعةَ مولاكَ على سبيل التجرِبة أياماً لتُدْرِكَ هذه اللَّذةَ ، وتَشْعُرَ بهذه الراحة ، وتعلم إخلاصي لك في النصيحة .

يا بنيَّ : إنك ستجدُ في طاعةِ الله ثِقَلاً على نفسك أوّلَ الأمرِ ، فاحتمِل هذا الثِّقَل ، واصْبر عليه ، حتى تصيرَ الطاعةُ عندكَ من العادات التي تألفُها .

يا بنيَّ : انظر إلى نفسكَ حينما كنْتَ في المكتب : تتعلم القراءَة والكتابة ، وتؤْمَرُ بِحِفْظِ القرآنِ الكريم

= في صحيحه وابن ماجة عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ .

أقول : رواه البخاري في صحيحه رقم (٤٤٠٩) في التفسير ، ومسلم رقم (٢٥٨٣) في البر والصلة ، باب تحريم الظلم ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ثم قرأ (وكذلك أخْذُ ربِّك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أَخْذه أليمٌ شديدٌ) ورواه أيضاً الترمذي رقم (٣١٠٩) وابن ماجه رقم (٤٠١٨) كلهم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

غَبِياً ، ألم تكنْ إذْ ذاكَ تكرَهُ المكتَبَ والمعَلِّمَ ، وتتمنّى أن تكونَ مُطْلَقَ السَّرَاحِ ؟ فها أنتَ اليوم قد بَلَغْتَ الدرجةَ التي عرفتَ بها فائدةَ الصبرِ على التَّعلُّم في المكتب ، وعلمتَ أن مُعَلِّمَكَ كان ساعياً في مصلحتك .

فيا بنيّ : اسمع نصيحتي ، واصبرْ على طاعة الله كما صَبَرتَ على التعلُّم في المكتب ، وسوفَ تعلمُ فائدةَ هذه النصيحة ، وتظهر لك جلياً إذا ساعدتْك العنايةَ الإلهية على العمل بنصيحة أستاذك .

يا بنيّ : إياك أن تَظنّ أنّ تقوَى الله هي الصلاةُ والصيامُ ونحوُهما من العبادات فقط .

إنّ تقوى الله تدخلُ في كل شيء ، فاتّقِ الله في عبادةِ مولاك ، لا تُفرِّط فيها ، واتّقِ الله في إخوانك ، لا تُؤْذ أحداً منهم ، واتق الله في بلدك : لا تَخُنْهُ ولا تُسَلِّطْ عليه عَدُوّاً ، واتق الله في نفسك ، لا تُهمل في صحتك ، ولا تَتَخَلَّقْ بِسِوَى الأخلاق الفاضلة .

يا بنيّ : قال رسول الله ﷺ : « اتق الله حَيْثُمَا

كَنْتَ ، وأَتْبعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وخَالِقِ النّاسَ بِخُلُق حَسَنٍ » .[1]

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي والحاكم عن أبي ذر ومعاذ بن جبل .

أقول : رواه أحمد في المسند (٥/١٥٣ و١٥٨ أو ١٧٧) والترمذي رقم (١٩٨٨) والدارمي (٢/٣٢٣) والحاكم (١/٥٤) وغيرهم من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ورواه أحمد (٥/٢٣٦) والترمذي (١٩٨٨) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وهو حديث حسن .

الدرس الثالث
في حقوق الخلاق العظيم
وحقوق رسوله ﷺ

يا بنيّ : إن الله تبارك وتعالى هو الذي خَلَقَكَ ، وَأَوْجَدَكَ ، وأَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعَمَهُ ظَاهِرةً وباطِنَةً . ألم تعلم أنك في أوّل أمرك كنْتَ نُطْفَةً في بطن أمّك ، فما زلْتَ تتقلَّبُ في نِعمة ربك ورحمته حتى وَلدتكَ إنساناً كاملاً، ووَهَب لك لساناً تتكلَّم به، وعيناً تُبْصرُ بها، وأُذناً تسمع بها ، وعقلاً تدرِكُ به ما يضرك وما ينفعك : ﴿ والله أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتكُم لا تَعْلمُونَ شيئاً ، وَجَعَلَ لكم السَّمْعَ والأبصارَ والأفئِدَة لَعَلّكُمْ تَشْكُرُون ﴾ [النحل : ٧٨] . أليس الذي وَهَبَكَ هذه النعم تَفضُّلاً منه وإحساناً ـ قادراً على سلبها إذا أغْضَبْتَهُ فغضبَ عليك ؟

يا بنيّ : أولُ واجب عليك لخالقك جلَّ شأنه أن

تَعْرِفهُ بصفاته الكمالية ، وأن تكون شديد الحِرصِ على طاعته ، بامتثالِ أوامره ، واجتناب نواهيه ، وأن تعتقد اعتقاداً جازماً أن الخير فيما يختاره الله لك ، لا فيما تختاره أنتَ لنفسك ، فلا تَصُدَّنّكَ عن طاعةِ مولاك وعبادته الشهواتُ والملاهي ، ولا طاعةُ أحد من المخلوقات ، عظيماً كان أو حقيراً .

يا بنيّ : مِنْ لُطْف الله بعباده إرْسَالُ الرسل عليهم الصلاة والسلام ، لإرشاد الخلق ، وهدايتهم إلى ما يُصْلِحُ شأنهم في دينهم ودنياهم .

وآخرُ الرسل هو سيدنا « محمد بنُ عبد الله بن عبد المطلب » العربيُّ الهاشمي ، ﷺ . فكما تجبُ عليك طاعةُ مولاك الذي خلقك ، تجبُ عليك طاعةُ رسوله الأكرم ، ﷺ : ﴿ يَاأَيُّها الذين آمَنُوا أطيعُوا الله وأطِيعُوا الرّسُولَ وأُولِي الأمْرِ منكم ﴾ [النساء : ٥٩] ﴿ ومَنْ يُطِعِ الله ورَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تحتِها الأنهارُ ، ومَنْ يَتَولّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أليماً ﴾ [الفتح : ١٧] .

يا بنيّ : إن رسولَ الله ﷺ لا ينطق عن الهَوى ، فكلُّ أوامره ونواهيه مُسْتَنِدَةٌ إلى الوَحي الإلهيِّ ، فطاعتهُ ﷺ مِنْ طَاعة الله جل شأنه : ﴿ قُل إنْ كُنتُم تحِبُّونَ الله فاتّبعُوني يُحْبِبْكم الله وَيَغْفِرْ لكُمْ ذُنُوبكم والله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

يا بنيّ : لا يَكمُل إيمانُ العبد حتى يكونَ الله ورسولُه أَحَبّ إليه ممَّا سواهُمَا ، قال رسول الله ﷺ : ﴿ لا يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ حتى أكُونَ أَحَبّ إليْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ والنّاس أجْمَعِينَ ﴾ (١)

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة عن أنس بن مالك .

أقول : رواه أحمد (٣/١٧٧ و ٢٠٧ و ٢٧٥ و٢٧٨) والبخاري (١/٥٥) باب حب الرسول ﷺ من الإيمان ، ومسلم (٤٤) في الإيمان ، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ ، والنسائي (٨/١١٤ و ١١٥) في الإيمان ، باب علامة الإيمان وابن ماجه رقم (١٦٧) في المقدمة ، كلهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه

الدرس الرابع
في حقوق الوالدين

يا بنيّ : مهما تَكَبَّدْتَ منَ المشقَّاتِ في خدمة أبيكَ وأمك ، فإن حقوقَهما عليك فوق ذلك أضعافاً مضاعفةً : ﴿ فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَهُما قَوْلًا كَرِيماً ، واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ : رَبِّ ارْحَمْهُمَا كما رَبَّيَانِي صَغيراً ﴾ [الإسراء : ٣٣ و ٣٤] .

يا بُنيّ : انظرْ إلى الطفل الصغير ، وإلى إشفاق أبَويْهِ عليه ، واعتنائهما بصحته وطعامه وشرابه ومَلاذِّهِ في ليله ونهاره وصحته وسَقَمِهِ ، تَعلمْ مقدارَ ما قاسىَ أبواكَ في تربيتك حتى بلغتَ مَبلغَ الرجال .

يا بُنيَّ : إنك في هذه الساعة ـ التي وفَّقَني الله لأن أتولَّى إرشادَكَ فيها ـ لا تزالُ تَتَقلّبُ في نعمةِ أبيك الذي يواليك بالنفقة بما في وُسْعِهِ ، ولا يضنّ عليك بما في طاقته ؛ لولا أبواكَ ما استطعتَ أن تجلسَ هذا المجلسَ

بين طلاب العلم الشريف .

يا بنيّ : كلُّ إنسانٍ يحبُّ أن يكونَ رفيعَ القَدْرِ ، عَظِيمَ الجاهِ ، محبوباً عند الله وعند الناس ، ويتمنَّى أن يكون مقامُه فوق كلّ مقامٍ ، لكنَّ الوالدَ يحبُّ لولده أن يكون أرْفعَ منه منزلةً ، وأكبَر منه مقاماً ؛ وأعزَّ منه جاهاً ؛ فبماذا يَجبُ أَنْ تُعامِلَ مَنْ يُقَدِّمُكَ على نفسه ، ويتمنّى لك أكثر مما يتمنَّى لها ؟

يا بُنيّ : احذر كلّ الحذرِ أن تُغْضِبَ أباكَ ، أو تُغْضِبَ أمك ، إنّ غَضَبَ الله مقرونٌ بغضب الوالدين ؛ ومَنْ غَضِبَ الله عليه فقد خَسِرَ الدنيا والآخرة .

يا بنيّ : أطِعْ أباك وأمك ؛ ولا تخالفْهما في شيء ، إلا إذا أمَرَاك بمعصية مولاكَ ، فإنه « لا طَاعَةَ لِمَخْلوقٍ في معصية الخالق »[1] ﴿ ووَصَّيْنَا الإنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ

(١) هو حديث شريف . رواه الإمام أحمد والحاكم عن عمران بن حصين والحكم بن عمرو الغفاري .
أقول : رواه أحمد في المسند (٤/٤٢٦ و ٤٢٧ و ٤٣٦) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه ، ورواه أحمد =

وَهْنا على وَهْنٍ وَفِصَالُهُ في عَامَيْنِ : أنِ اشْكُرْ لي وَلِوَالدَيْكَ إليّ المصِيرُ . وإنْ جَاهَدَاكَ على أَنْ تُشْرِكَ بي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ، وصَاحِبْهُمَا في الدُّنْيا مَعْرُوفاً ، واتَّبِعْ سَبيلَ مَنْ أنابَ إليّ ثمَّ إليّ مَرجِعكُمْ فأُنَبِّئُكم بما كُنْتُم تَعْمَلُون ﴾ [لقمان : ١٤ و ١٥] .

يا بُني : إن أَشَدّ الناس حُباً لك هو أبوكَ الذي تولىَّ تربيتكَ صغيراً ، وسلك طريقَ الرشاد في تعليمك ، حتى صِرْتَ منْ طلابِ العلوم الدينية ، فاحرص على قبول نصائحه فهو أدرى منك بما يُصيبك ؛ وما ينفعك وما يضركَ ، والله يتولّى هدايتك وإرشادَكَ وصَلاَحَك .

= (٥ / ٦٦) والحاكم في المستدرك (٣ / ٣٤٣) من حديث عمران بن حصين ، والحكم بن عمروالغفاري ، وذكره الحافظ الهيثمي في (مجمع الزوائد) (٥/٢٢٦) من حديث عمران والحكم بن عمرو معاً ، وقال : رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط ، ورجال البزار رجال الصحيح ، أقول : فالحديث صحيح .

الدرس الخامس
في حقوق الإخوان

يا بنيّ : ها أنتَ قد أصبحتَ من طلبة العلم الشريف ، ولكَ رُفقاء في درسك ، هم إخوانك وهو عشيرتك ، فإياك أن تؤْذِيَ أحداً منهم أو تُسيءَ معاملته .

يا بنيّ : إذا جلست للدرس فلا تضايق أحداً من إخوانك ، وافسَح له في المكان حتى يتمكَّن من الجلوس ؛ فإن مضايقة الإخوان في مجالسهم توغِرُ الصدورَ . وتُوَلِّدُ الأحقاد ، وتثير الشرور : ﴿يا أَيُّهَا الّذِينَ آمنوا إذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا في المَجَالِسِ فافْسَحُوا يفْسَحِ الله لكم ، وإذا قِيل : انْشُزُوا فانْشُزُوا ، يرفعِ الله الذين آمنوا منكم والذينَ أوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ والله بما تَعْمَلُون خَبير﴾ [المجادلة : ١١] .

يا بنيّ : إذا أشكلتْ مسألةٌ على أحدِ إخوانكَ في درسه ، وطلب من الأستاذ إيضاحها له ، فاستمع لما

يقوله أستاذك في الجواب ، لعلك تستفيدُ من الإعادة فائدةً لم تكن تعرفها ، وإياك ثم إياك أن تتكلم بكلمةٍ تدل على احتقاره ، أو أن يَظْهَرَ على وجهك ما يفيدُ الاستخفاف بأفكاره .

يا بنيّ : قيل للإمام أبي حنيفة [1] رضي الله عنه : بم بلغتَ ما بلغتَ من العلم ؟ قال : ما بخلتُ بالإفادة ، ولا استنكفت عن الاستفادة .

---

(١) هو النعمان بن ثابت بن زوطى التيمي مولاهم الكوفي ، مولده سنة (٨٠) هـ رأى أنس بن مالك رضي الله عنه ، وروى عن عطاء بن أبي رباح ، وعاصم بن أبي النجود ، وحماد بن أبي سليمان ، وعمرو بن دينار وغيرهم ، وروي عنه ابنه حماد ، وحمزة بن حبيب الزيات ، وزفر بن الهذيل ، وأبو يوسف القاضي ، ومحمد بن الحسن الشيباني وغيرهم ، وكان إماماً ورعاً عالماً عاملاً متعبِّداً ، كبير الشأن ، لا يقبل جوائز السلطان ، بل يتِّجر ويتكسَّب ، قال عبد الله بن المبارك : ما رأيت في الفقه مثله . وقال الشافعي : الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة ، توفي رحمه الله سنة (١٥٠) هـ .

فيا بنيّ : لا تضيّقْ على إخوانك طريقَ العلم إذا طلبوا من أستاذهم تحقيقَ مسألة لم يعرفوها حقّ المعرفة ، وشاركْهم في الاستماع إلى ما يقول الأستاذ ، إن كنت تريدُ الخير لنفسك .

يا بنيّ : إن لك من إخوانك من يشاركك في المسكن والمبيت ، فاحرِص على راحة إخوانك في مساكنهم ، وإذا جاء وقت النوم ، فلا تزعجْهم بالمطالعة والمذاكرة ، واطلب لهم من الراحة ما تطلبه لنفسك ، فإذا طلع الفجر واستيقظتَ لأداء فريضة الصلاة ، فأيقظْ إخوانكَ برفقٍ ولُطفٍ ، وحافظوا على الصلاة في جماعة ، فإن صلاةَ الجماعة أفضلُ من الصلاة أفذاذاً .

يا بنيّ : إذا استعانَ بك أحد إخوانك على عمل لا يستطيعُ القيام به وحدَه ، فلا تَبْخل بمساعدته ، وإياك أن تُظْهِرَ له أنك صاحبُ الفضل عليه بهذه المساعدة .

يا بنيّ : قال رسول الله ﷺ : « المؤْمنُ للمؤْمِنِ كالبُنْيان يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً [1] » .

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي موسى

الدرس السادس

في آداب طلب العلم الشريف

يا بنيّ : أقبِل على طلبِ العلم بِجِدٍّ ونشاطٍ ، واحرص على وقتك أنِ يذهب منه شيء لا تنتفع فيه بمسألة تستفيدها .

يا بنيّ : طالعْ دروسَك المقرّرة عليك مطالعةً جيدةً قبل استماعها من الأستاذ في مجلس الدرس ، وإذا أشكل عليك الأمر في مسألة من المسائل ،فلا تسْتنكفْ منْ عرضها

الأشعري .

أقول : رواه البخاري (٥/ ٧١ و٧٢) في المظالم ، وفي المساجد ، باب تشبيك الأصابع في المسجد ، وفي الأدب ، باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً ، ومسلم رقم (٢٥٨٥) في البر ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ، والترمذي رقم (١٩٢٩) في البر والصلة ، باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم ، والنسائي (٥/ ٧٩ و ٨٠) كلهم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

على أحد إخوانك ، لتشترك معه في فهمها ، ولا تنتقل من مسألة إلى أخرى قبل فهم الأولى فهماً جيداً .

وإذا أجلسك الأستاذ في مكانك الذي عَيَّنَهُ لك من الدروس ، فلا تجلسْ في غيره ، وإذا تعدّى عليك أحدُ إخوانك بالجلوس فيه ، فلا تنازعْه ، ولا تشاتمه ، وارفعِ الأمر إلى أستاذك حتى يقيمه ويجلسك في مكانِك المعيَّن .

يا بنيّ : إذا شرع الأستاذ في قراءة الدرس فلا تتشاغل عنه بالحديث ، ولا بالمناقشة مع إخوانك ، وأصْغ إلى ما يقوله الأستاذ إصغاءً تاماً ، وإياك أن تَشغَلَ فكرَك بشيء آخر من الهواجس النفسية أثناء الدرس ، وإذا أشكلتْ عليك مسألةٌ بعد تقريرها ، فاطلبْ من الأستاذ بالأدب والكمال إعادتَها ، وإياك أن ترفع صوتك على أستاذك ، أو تنازعَهُ إذا أعرض عنك ولم يلتفتْ إلى قولك .

يا بنيّ : إذا خرج التلميذُ عن حَدِّ الأدب بين يَدَيْ أستاذه ، سقطت قيمته عند أستاذه ، وعند إخوانه ،

واستحقَّ التأديب ، والزجرَ على قِلَّةِ أدبِهِ .

يابنيّ : إذا لم تحترم أستاذك فوق احترامِك لأبيك ، لم تستفدْ من علومه ، ولا من دروسه شيئاً .

يا بنيّ : زينةُ العلم التواضُعُ والأدب ، فمن تواضع لله رفعه ، وحَبَّبَ فيه خَلْقه ، ومن تكبَّر وأساءَ الأدب ، سقط من أعْينِ الناس ، وبَغّضَهُ الله إليهم ، فلا يكاد يجد إنساناً يُكرمه أو يشفق عليه .

يا بنيّ : لا شيءَ أضرُ على طالب العلم من غَضَب الأساتذة والعلماء ، فإياك ـ يا بنيّ ـ أن تُغْضِبَ أحداً من المدرِّسين أو تسيءَ الأدبَ أمامَهُ ، فإنّ أقلّ ما يُنتجهُ غضبُ الأساتذة الحرمانُ والقطيعةُ ، فاقبل ـ يا بنيّ ـ نصيحتي لك ، والتمس رِضْوَانَ مشايخك ، واسألهم الدعاءَ لك بالفتح ، عسى الله أن يستجيبَ دعاءَهم لك . وإذا خَلوْتَ بنفسك ، فأكثر من الدعاءِ والابتهال إلى الله تعالى أن يرزقك العلمَ النافعَ والعمل به ، إن ربَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ ، واسعُ الكرم والجودِ .

الدرس السابع
في أدب المطالعة والمذاكرة والمناظرة

يا بنيّ : إن أردتَ الخير لنفسك فلا تطالع دَرْسَكَ وحدَكَ واتخذ لك صديقاً من إخوانك : يشاركك في المطالعة و يعينك على الفهم ، فإذا مررت بمسألة وظننتَ أنك فهمتها ، فلا تكتفِ بظنِّك حتى تَدَع الكتاب من يدك وتقرِّرَها لنفسك أو لمن معكَ ، كأنك تلقي درساً على المتعلِّمين .

يا بنيّ تأدّبْ مع أخيك الذي تختاره للمطالعة ، وإذا فهمتَ قبلهُ فلا تفتخر عليه بالسبق ؛ وإذا عارضك في فهم مسألة فاستمع لما يقول ؛ فربما يكون الحقُّ معه وأنت مخطىء في فهمك ، وإياك والمجادلة بالباطل والانتصار لرأيك إن كان خطأً ، فإن العلمَ أمانة ؛ ومن انتصر للباطل فقد ضيّع أمانة الله .

يا بنيَّ : أكثر من المذاكرة لما حصّلت من العلوم ،

فإن آفةَ العلم النسيانُ .

واعلم أنك في نهاية العام ستُمتحن في كل معلوماتك ، وعند الامتحان يكرم المرء إذا أحسن الإجابة ؛ ويَستهين به أهله وإخوانه إذا لم يحسن الجوابَ ، وظهر أنه مُفَرّطٌ في التحصيل .

يا بنيّ : إياك أن تكون مذاكرتك عبارة عن حفظ ألفاظٍ لا تعقل معناها ، ولكن اجعل همّتك موجَّهة إلى تعقّل المعاني وتثبيتها في ذهنك ، فإن العلم هو ما تفهَمُهُ لا ما تحفظهُ .

يا بنيّ : قلّما اجتمع طالبٌ مع زُمرةٍ من إخوانه ، إلاّ كان مدارُ المحاورة بينهم على المناظرةِ والمفاوضةِ في المسائل التي يعرفونها ، فلا تقطع على متكلِّم حديثه ، ولا تتسرّع بالإجابة قبل التثُّبت ، ولا تنازع في مسألة لم يسبق لك الاطّلاع عليها ، ولا تجادل بغير الحق ، ولا تُظْهر العَظَمة على من يُناظرُك ، ولا تخرج عن موضوع المناظرة إلى تسفيه رأي مناظرك ، ولا إلى تقريعه بالكلام المؤلم ، ولا

إلى توبيخه إذا ظهر خَطَؤُهُ في الفهم .

يا بنيّ : المحاورة بين الطلاب في المسائل العلمية جزيلة الفوائد ، تقوّي الفهمَ ،وتطلق اللسانَ ، وتعين على حسنِ التعبير عن الأغراض المقصودة ، وتولّدُ في الطالبِ الجرأة والإقدامَ ، ولكن — يابني — لا ينفعك هذا عند الله ولا عند الناس إلا إذا كنتَ مهذّب الأخلاق ؛ بعيداً عن الفحش في القول ، تقول الحقّ ولو على نفسك ، ولا تأخُذكَ في الحقّ لومة لائم .

الدرس الثامن

في آداب الرياضة والمشي في الطرقات

يابنيّ : إنك في بعض أوقات فراغك لا تستغني عن الرياضة البدنية ، حتى يتجدد نشاطك لمزاولة دروسك ، فإذا خرجت للرياضة فاقصد الأماكن الجيدَةَ الهواءِ من الضواحي ، و عليكَ السكينة والوقارُ ، فلا تسرع في مشيتك ، ولا تمازح أحداً في طريقك ، ولا تضحك إلّا بِقَدْرِ التبسّمِ .

يا بنيّ : إذا خرجتَ للرياضة أو لغيرها مع إخوانك ، فإياكم أن تعترضوا أحداً من المارّة في الطرقاتِ ، وإياكم أن تصطفُّوا في طريق العامة ، فإن كان الطريق واسعاً ، فامشوا مَثْنَى مَثْنَى ، وإلا فامشوا فرادى : واحداً فواحداً .

يا بنيّ : إن الطرقَ العموميّة ليست مملوكةً لأحد ، وإنما لكلِّ مارٍّ حقُّ المرور فيها ، فلا تزدحموا في الطرقات ، فإن ذلك يُزْرِي بطلبة العلم الشريف ، وَيَذْهَبُ باحترام الناس لهم .

يا بنيّ : إذا رأيت في طريقك غوغاءَ ، أو فئةً يضربُ بعضها بعضاً ، فإياك أن تُعَرِّجَ عليهم ، أو تَقْتَرِبَ منهم ، فربما كان ذلك سبباً لإهانتك ، أو اتِّهامكَ بشيء أنت منه بريءٌ .

يا بنيّ : إذا تعدّى عليك أحدٌ في طريقك من عامَّة الناس ، فلا تقابل العدوان بمثله ، واعفُ عمّن ظلمك ، يرفع الله قَدْرَكَ ﴿وجَزَاءُسَيِّئةٍ سيِّئَةٌ مِثْلُها فَمن عَفَا وأَصْلحَ

فأجْرُهُ على الله ﴾ [الشورى : ٤٠] بهذا الخلق الجميل أدّبَنا الله في كتابه العزيز .

يا بنيّ : إذا خرجتَ من المسجد ، أو من المسكن ، لشراءِ شيء تحتاجُ إليه — من طعام أو شراب أو كسوةٍ أو نحو ذلك — فلا تتعرّض لمنازعة السفهاء ،ولاتُعرِّض نفسك لسماع ألفاظهم البذيئة ، وابتعد عن هؤلاء القوم جهدَكَ ، وإياك والمماحكةَ مع الباعة في تقدير الأثمان ، فإن وافقكَ الثمنُ اشتريتَ ، وإلا فانصرفْ بسلام ، وإياك أن تتعرَّض للباعة بقصد المساومة فقط دون الشراء ،فإن ذلك يدعوهم إلى إسماعك ما تكره من كلمات التقريع و الازدراء .

يا بنيّ : إذا حدّثت إنساناً ، فلا ترفع صوتك إلا بمقدار ما تسمعه ، وكن لطيف القولِ ، حسن الحديثِ ، واحذر أن تتكلم بكلمة ينقصُ بها قدرُك عند من تحدّثهُ ، ولو كان من أمثالك في السِّنِّ و المنزلة . وإذا حدَّثك إنسانٌ فأحسن الاستماع له . ولا تقابله بالغِلظة

والفظاظة ، ﴿ وخالِقِ النَّاس بخلقٍ حَسَنٍ ﴾[1] .

الدرس التاسع

في أدب المجالس وأدب المحاضرة

يابنيّ : إذا مررتَ بقومٍ ، فأقرئهم السلام باللفظ المعروف الذي وردت به السنة النبوية ، وهو قولك : (السلام عليكم) ولا تتجاوزْ هذه التحيَّةَ إلى غيرها من المستحدثات . ولا تَدْخل مجلس قوم إلا بعد الاستئذان ، فربَّما كانوا يتفاوضون في أمر لايحبّون أن يشاركهم فيه غيرُهم ، وتجنَّب التطفّل على الناس جهدك ؛ فإنَّ الطفيليّ ثقيلٌ على النفوس ، وإن كان أعلم أهل عصره .

يابنيّ : انظر إلى نفسك : إذا كنت في بيتك مثلاً

---

(١) هذا بعض حديث شريف : رواه الإمام أحمد والترمذي والحاكم عن أبي ذر ؛ ورواه أحمد والترمذي عن معاذ ، وقد تقدم تخريجه صفحة(٩) .

تعمل عملاً تحب أن لايطَّلِعَ عليه أحدٌ غيرك ، ففاجأك إنسان بالدخول عليك ، ألستَ تحسُّ بثقله ، وتتمنّى ذهابه ؟ فكذلك حالُك إذا غشيتَ قوماً بدون استئذان ولا رغبة منهم في وجودك معهم .

يابنيّ : إذا دُعيتَ لمجالسة قوم ، وكنت أصغرهم سِنّاً ، فلا تجلس حتى يأذن لك القومُ بالجلوس ، وإذا جلست فلا تزاحم أحداً من جلسائك ، ولا تضطرَّ جالساً إلى أن يترك مجلسه لأجلك ، ولا تتقدَّمْ إلى موضعٍ رفيع ، إذا كان في المجلس من هو أحقُّ منك بالجلوس فيه . وإذا جلست في موضعٍ ، ثم جاء من هو أولى منك بالجلوس فيه ، فاترك له ذلك الموضع قبل أن تُؤْمَرَ بالتنحِّي عنه ، يَزِد احترامُك في أعين جُلَسَائِكَ .

يابنيّ: إذا جلست في قومٍ فلا تدخل معهم في حديثهم حتى يُدْخِلُوك ، ولا تتكلمْ وفي القوم من هو أولى منك بالكلام ، وإذا تكلَّمت فلا تقل إلا حقاً ، ولا تتوسَّعْ في المقال إلّا بقدر إقامة الحجّة ، ولا تناقش

جلساءَك إلا بالأدب والتحفّظِ من عَثَراتِ اللسان ، وإياكَ والقهقهة في المجالس ، فإنها من أخلاق السَّفَلةِ ورَعاعَ الناس ، وَأَقْلِلْ من المُزَاح جُهدَكَ ، فإن كثرة المُزَاح تَذهبُ بالاحترام ، وربّما أوغَرَتْ صدورَ بعضِ الناس عليك .

يا بنيّ : لا تجالِسْ من الناس إلا أهْلَ المروءَةِ والشرفِ والعِفَّةِ والكمالِ ، وإياك ومخالطة السفهاءِ ومجالستَهم ، واحذرْ مجالسَ الغِيبةِ والنميمةِ جهدك ، ولا تجالسْ أحداً من الفُسَّاق والفُجّار ، وإياك ومعاشرةَ أهل الخُبْث والدسائس والنفاق ، فإن الأخلاق السيئةَ تسرِي في الجلساء كما تسرِي النارُ في الحطب .

الدرس العاشر

« في آداب الطعام والشراب »

يا بنيّ : إذا كنتَ تريد أن تعيشَ صحيحَ البِنْيَة سليماً من الأمراض ، فلا تُدْخِل في معدتك طعاماً على طعام ، ولا تأكل إلا إذا كنت جائعاً ، وإذا أكلتَ فلا تَمْلأْ بطنك من الطعام . قال رسول الله ﷺ : « ما مَلأ ابنُ آدمَ وِعاءً شراً مِنْ بطْنِه »[1]

يا بني : إذا كانت بكَ حاجة إلى الطعام ، فاغسل

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم عن المقدام بن معد يكرب .

أقول : رواه أحمد في المسند (٤/ ١٣٢) والترمذي رقم (٢٣٨١) في الزهد ، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل ، وابن ماجه رقم (٣٣٤٩) في الأطعمة ، باب الاقتصاد في الأكل وكراهة الشبع ، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٢١) كلهم من حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح .

يديكَ أولاً ، واذكر اسمَ الله على طعامك ، ولاتبتلع الطعامَ ابتلاعاً ، ولكن امضغ اللقمة مضغاً جيداً ، فإن جَوْدَةَ المضغ تُعين على الهضم ، وكلْ مما يليك ، ولا تُذهِب يَدَكَ في الإناء ها هنا وهاهنا، فإن ذلك منَ الشَّرَهِ المْقوتِ .

يا بنيّ : إياك أن تفعلَ كما يفعلُ السَّفلة وَرَعاعُ الناسِ ، فلا تأكل في الأسواق ، ولا على قارعة الطريق ، ولو على سبيل التّفكهِ ، فإن ذلك يُسْقِط المروءَةَ[٢] ، ويُزري بأهل الفضل .

---

(١) المروءة : تعاطي ما يستحسن ، وتجنب ما يسترذل ، والمروءة أيضاً : استعمال كل خلق حسن ، واجتناب كل خلق قبيح .

قال الشاعر :

مررت على المروءة وهي تبكي
فقلت علام تنتحب الفتاة
فقالت : كيف لا أبكي وأهلي
جميعاً دون خلق الله ماتوا

يا بنيّ : إياكَ والبخلَ ؛ وإياكَ والشَّرَه ، فإذا جلستَ وبجانبك إنسانٌ ـ تعرفه أو لا تعرفه ـ فادْعُهُ لمؤاكلتك ؛ وإذا بَقِيتْ منك بقيّةٌ ، فتصدق بها على أهل الحاجة ؛ ولا تستصغرْ شيئاً تتصدقُ به ، فإن للقليل من الصدقة موضعاً لا يستغني عنه الفقراء ، وإذا تصدقتَ على فقيرٍ ، فلا تَزدَرِه [1] ، ولا تُتبعْ صدقتكَ بأذى منْ تَصدّقتَ عليه : ﴿ قوْلٌ مَعْروفٌ ومَغْفِرَةٌ خَيرٌ مِنْ صَدَقةٍ يتبَعُها أَذىً ﴾ [البقرة : ٢٦٣] واجْتَهدْ أنْ تخفيَ صدقتكَ عن الناس ، فإنّ صَدَقة السِّر تُطْفىء غَضَبَ الله تعالى [2] .

يا بنيّ : اتق الأكلَ والشُّربَ في الأواني القَذِرة ، فربّما جلبتَ لنفسك من الأمراض بقذارةِ الأواني مالا ينفعك

(١) في الأصل : فلا تزدريه ، أي لا تحتقره ، وهو فعل أمر من ازدراه يزدريه ، ولكن حذفت الياء لأنه فعل أمر مبني على حذف حرف العلة من آخره .

(٢) عن معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ قال : « إن صدقة السر تطفىء غضب الرب تبارك وتعالى » . رواه الطبراني في المعجم الكبير .

فيه طِبُّ الطبيب ، ولا علاج الحكيم . ولا تشربْ من الماء إلا ما كان نقيّاً من الأدران ، وإذا شربتَ فسَمِّ الله قبلَ أن تشربَ ، ولا تشرب الماءَ عَبّاً [1] ولكن اشرَبْهُ مَصّاً ، قليلاً قليلاً ، واسترح في شربك ، وليكن ثلاث مراتٍ ، تفصِلُ بين كل مرةٍ وأخرى بذكر اسم الله تعالى .

وإذا فرغتَ من الطعام والشراب ، فاحمد الله الذي أطعمك وسقاك ، واشكره على نعمه التي لا يُحصيها العدُّ ، والله يتولَّى هدايتك وإرشادَكَ .

= أقول : ذكره الحافظ الهيثمي في (مجمع الزوائد) (٣/ ١١٥) من حديث معاوية بن حيدة وقال : رواه الطبراني في الكبير والأوسط أطول من هذا ، ويأتي بطوله في البر إن شاء الله ، وفيه صدقة بن عبد الله وثقه دحيم وضعفه جماعة ، وذكره الهيثمي أيضاً (٣/ ١١٥) من حديث أبي أمامة وقال : رواه الطبراني في الكبير ، وإسناده حسن ، وللحديث شواهد .

(١) العبّ : شرب الماء دفعة واحدة من غير مصٍّ ولا تنفّس .

الدرس الحادي عشر

في آداب العبادة وآداب المساجد

يا بنيّ : إياكَ والتفريطَ في عبادة ربك ، فإنه يقول في كتابه العزيز : ﴿ ومَا خَلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ ، ما أُرِيدُ منهُم مِنْ رِزْقٍ ومَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ، إنَّ الله هُوَ الرَّزَّاقُ ذو القُوةِ المتينُ ﴾ [الذاريات : ٥٦ و ٥٧ و ٥٨] .

يا بنيّ : كن حريصاً على أداء الصلاة المفروضة في وقتها مع الجماعة ، فإذا اقتربَ الوقتُ ، فبادِرْ إلى الوضوء ، ولا تزاحمْ أحداً في طريقك ، ولا تُسرفْ في استعمال الماء ، فإذا دخل الوقتُ ، وأذّن المؤذِّنُ ، فاستقبل القبلةَ ، وصلّ السُّنَّةَ القبلية ، واجلسْ بسكينة وَوَقارٍ حتى تُقامَ الصلاة ، فصلّ مع الجماعةِ بخشوعٍ وخضوعٍ . واعلم أنك في حال الصلاة تُناجِي رَبَّك

وأنت واقفٌ بين يديه [1] ، فإياك وهَواجِسَ الشيطانِ ، وإياك والتضاحك في حضرة مولاك ، وإياكَ واشتغال القلب بغير مناجاة الرحمن .

يا بنيّ : إذا فرغتَ من الصلاة المفروضة ، فَصلِّ السُّنَّة البعْدِيّة، وادْعُ الله بما تيسّرَ من صالح الدعوات ، واستغفر ربك كثيراً ، واسأله الفتح ، فإنه هو الفتَّاحُ العليمُ .

يا بنيّ : إن استطعتَ أن لا تجلسَ في المسجد إلا وأنت على وضوءٍ ، فافعَل ، فإن المساجدَ بُيُوت الله ،

---

(١) روى الحاكم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن أحدكم إذا قام يصلي إنما يناجي ربه فلينظر كيف يناجي » .

أقول : رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٢٣٥ و ٢٣٦) وهو عند أحمد في المسند (٢/ ٦٧) من حديث أبي هريرة وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبي .وهو عند أحمد من حديث البياضي (٤/ ٣٤٤) بلفظ (إن المصلي يناجي ربه عز وجل فلينظر ما يناجيه ، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن) وهو حديث صحيح ، ورواه الطبراني عن أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما .

وليس من الأدب أن تدخلَ بيتَ ربك وأنت على غيرِ استعدادٍ لعبادته .

يا بنيّ : إن عامَّة المسلمين ينظرون إلى طلبةِ العلم الشريف نظرَ الاحترامِ ، ويستعظمونَ كلّ صغيرةٍ تقعُ منهم ؛ فإياكَ ـ يا بني ـ أن تسلِّطَ ألسنة العامة على نفسك ، لا تَرْفعْ صوتك في المسجد ، فإن ذلك من العامِّيِّ قبيحٌ ، وهو من طلبة العلم الشريف أقبحُ وأشدُّ نُكْراً ، ولا تخاصم أحداً من إخوانك ، ولا تنازعْه ، ولا تُضَيّق على مسلمٍ يريد أن يتعبَّد في بيت مولاه .

يا بنيّ : إن العاميّ إذا دخل المسجد ، فالأجدر بك وبه أن يتعلمَ منك الأدبَ والخشوع ، لا أن تسيءَ الأدب فيتوَلّى نُصحك وإرشادك .

فيا بنيَّ : لا تضيّع شرفَ العلم بإساءة الأدب في بيوت الله ، ولا تُسَلِّط ألْسنة العامّةِ على إخوانك .

وإذا رأيتَ مِنْ أحد المصلين شيئاً تكرهه ، فعاملْه بالإحسانِ واللطفِ ، وإذا شئْتَ أن ترشدَه إلى حُكمٍ

شرعي ، فلا تُغْلِظ عليه القولَ ، ولا تُنفِّرْهُ من التفقُّه في الدين ، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم .

الدرس الثاني عشر
في فضيلة الصدق

يا بني : احْرص على أن تكونَ صادقاً في كل ما تحدّثُ به غيرَك ، حِرْصَكَ على نفسك ومالك ، فإن الكذِبَ شرُّ النقائص والمعايب .

واحذرْ ـ يا بني ـ أن تشتهر بين إخوانك وأساتذتك بالكذب ، فلا يُصَدّقكَ أحدٌ فيما تقول وإن كان حقاً .

يا بنيّ : إذا فعلتَ أمراَ تستحق عليه عقوبةً من أستاذك ، فلا تكذبْ عليه إذا سألك ، ولا تحاولْ إلصاق الذنب بأحد من إخوانك ، فربما قام البرهانُ على كذبك فتستحقّ العقوبةَ مُضاعَفَةً : عقوبةَ الذنب ، وعقوبةَ الكذب ، وهيهاتَ أن تُنْجيَكَ هذه العقوبة من عقوبة ربك الذي يعلم ما تُكِنُّهُ في صدرك .

يا بنيّ : إن الله تعالى قد لعنَ الكاذبين في كتابه العزيز ، فهل ترضى أن تكون ملعوناً عند الله وأنت من طلبة العلوم الدينية ؟

يا بنيّ : إذا كذبتَ مرةً ونجوتَ حيث لا يوجد شاهد عليك ، فقلّما تنجو في غيرها إذا ظهر كذبك بشهادة مَنْ رآك .

يا بنيّ : إذا لم تَخَفْ من الناس إذا كذبتَ عليهم ، ألا تخافُ مِنْ مولاك الذي يعلم خائنةَ الأعين وما تخفي الصدور ؟

يا بنيّ : إذا كَذَبَ المرءُ مَرَّةً تَعَوّدَ لسانهُ الكذب . فلا يَكادُ يَصْدُقُ في حديث ، ولا في مقالٍ ، فاحرصْ كل الحرص على تَحَرّي الصدق فيما يجري على لسانك ، وإياك أن تقعَ في أكذوبة ولو كان فيها ذهابُ نَفْسِكَ .

يا بنيّ : هذه وصيتي لك ، فإن كنت من أهل الصدق كما هو شأن طلبة العلم الشريف ، فَعَاهِدْني على ألّا تكذب في حديثٍ قَطُّ ، وقل : « عليّ عَهْدُ الله وميثاقه

ألّا أكذبَ على أحدٍ ما عِشْتُ » وسَتُظهِرُ لنا الأيامُ مقدارَ احتفاظك بهذا العهد الذي عاهدتَ الله عليه بَينَ يَدَيْ أستاذك وأمام إخوانك .

يا بنيّ : إن بعضَ الناسِ ممن لا خلاقَ لَهُمْ يتخذون الكذبَ مُزَاحاً ، فاحذر أن تكذب على الناس ، حتى إذا سئلتَ قلتَ : إنما كنتُ مازحاً ، فلا تكذب في جِدٍّ ولا في هَزْل ، ولا تُعَوِّدْ لسانك على غير الحق والصدق .

واعلم أن الذي يُعْرَفُ بالصدق بين قومه وعشيرته وإخوانه ، يؤخذ قولهُ حجةً بلا برهان ، ويكون موضعَ عدالة عند العامة والخاصة ، فإن كنت تحبُّ أن تكون موثوقاً بك ، فاحرص على أن تكون صادقاً في كل ما تحدّثُ ، والله يتولى هدايتك وإرشادك إلى الصواب [1] .

---

(١) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما يزال الرجل =

الدرس الثالث عشر
في فضيلة الأمانة

يا بني : الأمانة من أجمل ما يَتَحلَّى به الإنسان من الفضائل ، وضدُّها الخيانة : وهي من أقبح الرذائل التي تَشِينُ الإنسان وتحطُّ من قَدْرِه .

الأمانة : ـ يا بني ـ حلية أهل الفضل ، وزينة أهل العلم ، وهي مع الصدق من صفات الرسل عليهم الصلاة والسلام .

فيا بنيّ : كن أميناً ، ولا تخن أحداً في عِرْضٍ ، ولا

= يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي .

أقول رواه البخاري رقم (٥٧٤٣) في الأدب ، باب قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ ومسلم رقم (٢٦٠٧) وأبو داود رقم (٤٩٨٩) والترمذي رقم (١٩٧٢) كلهم من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

في مال ، ولا في غيرهما ، إذا ائتمنك أحدُ إخوانِك على ماله ، فلا تخنه ، ورُدّه إليه بمجرد طلبه ، وإذا ائتمنك على سرَّه ، فلا تخنه ، ولا تُفْشِهِ إلى أصدق صديق لك وأعزِّ عزيز عندك .

يا بنيّ : إنَّ لك إخواناً يشاركونك في المسكن ، ولهم أمتعة تركوها في مسكنهم اتكالاً على أمانتك ، فلا تمدد يدك إلى شيء من ذلك في غيبتهم ، ولا تمكّن أحداً من قربانها إذا كنتَ حاضراً وهم غائبون .

يا بنيّ : احذرْ أن تكون مُتَّهماً بين إخوانك بالخيانة ، فكلما ضاع منهم شيءٌ اتَّهموك به ، ونسبوا إليك سرقته وإن كنت بريئاً .

يا بنيّ : كن أميناً في كل شيء ، وفي كل صغيرة وكبيرةٍ ، وإياك أن تحدّث نفسَك بالخيانة في عظيمٍ أو حقيرٍ ، فلا تفتح محفظة أخيكَ ، ولا صندوق أمتعته في غيبته لمجرّد الاطِّلاع على ما فيهما ، فإن ذلك من الخيانة ، ولا تَتَجَسَّسْ على إخوانك ، فإن ذلك من الخيانة ، ولا

تُصْغِ بأذنك إلى اثنين يتَسارَّانِ ، فإن ذلك من الخيانة ، ولا تطَّلعْ على خطابٍ باسم غيرك ، فإن ذلك من الخيانة .

يا بنيّ : إياك والمُزَاح بالخيانة ، فلا تختلِسْ من أحد إخوانك شيئاً على سبيل المزاح لِتَرُدَّه إليه إذا تفَقّده ، فإن ذلك يدعو إلى سوء الظنّ بك ، واتّهامك بما أنت منه بريء ، وربما رسخ في ذهن البعض أنك من أهل الرِّيبة ، وهيهاتَ أن تَنْزِعَ هذا الظن من قلوبهم .

يا بنيّ : لا تخنْ نفسك ، ولا تخن أحداً من الناس ، إنّ من خيانتك لنفسك ، أن يسألك الأستاذ ليمتحنك ، فتنظرَ في الكتاب اختلاساً ثم تجيبه ، كأنك عالم بما سئلت عنه ، ومن خيانتك لنفسك أن تجلسَ مجلسَ الامتحان ، فإذا عجزتَ عن الجواب ، اختلستَ مسوّدَةَ أخيك لتكتب منها ، أو سألتَه همساً ليجيبك .

هذه يا بنيّ خيانة وجهالة معاً ، وغشٌ أيضاً ، فلْيَتكَ

إذْ كنتَ جاهلاً ، لم تكن خائناً ولا غشّاشاً [1] . فاتَّقِ ـ يا بني ـ الوقوعَ في مثل هذا ، واجْتهد في درسك تَتَعَلَّمِ العلمَ وتَسْلم من الخيانة والغش ، والله يتولى هدايتك وإرشادك .

الدرس الرابع عشر
في فضيلة العفة

العِفَّةُ ـ يا بني ـ من أخلاق الأخيار ، ومن صفات الأبرار ، فاحملْ نفسك على التخلُّق بها ، حتى تصيرَ مَلَكةً راسخةً فيك . من العِفَّة أن تكون قنوعاً ، لا تضِنُّ بطعامك وشرابك على ذوي الحاجات ، ولا على أحد من إخوانك .

ومن العِفَّة أن لا تَطَّلِعَ إلى ما في أيدي الناس ، فلا تطمحْ نفسك إلى التوسُّع في المآكل والمشارب واللذائذ الفانية .

---

(١) الأصوب أن يقال : ولا غاشاً .

يا بنيّ : من العِفّة أن تقاوم نفسك وهواك ، فلا تنقاد لهما إذا حَمَلاكَ على طلب شيء من اللذات القبيحة ، التي يتسارعُ إليها أهلُ الفساد ، وينهمكُ في طلبها الأشرارُ والفُجّارُ .

يا بنيّ : إن الذي يملأ بطنَهُ من الخبز وحدَه ، كالذي يملؤها من اللحوم والفواكه والحلوى ، كلاهما لا يستطيع أن يدخل في معدته شيئاً إذا شبع ، ومصير ما يأكله الأغنياء والفقراءُ واحدٌ : وهو تلك القاذروات .

فيا بنيّ : كنْ شريف النفس بِعِفّتِكَ ، ولا تُدَنِّسْ شَرَفَ نفسك بأكلة تذهب لَذَّتُها بمجرد الفراغ منها ، ويلحقك عارُها أينما حَللتَ ، وحيثما تَوَجّهْتَ .

يا بني : العِفَّةُ تاجُ من لا تاجَ له ، فاحتفظ بتاج العِفَّةِ الذي يُكْسِبُك الوقارَ والاحترامَ عند الخاصة والعامة .

اتق المحارمَ كُلَّها ، وإذا مَشَيْتَ في الطريق ، فلا تملأ عينك من النساء ، ولا تكلم امرأةً ليست ذاتَ رَحِمٍ

مَحْرَمٍ منك ، وإياك أن تخلوَ بامرأةٍ لا يَحِلُّ لك المقام معها ، وائتمر بأمر الله في كتابه العزيز ، حيث يقول : ﴿ قُل لِلمؤْمِنِن يُغضّوا مِنْ أَبْصَارِهم ويَحْفَظُوا فُرُوجَهُم ، ذلِك أَزكىَ لهم إنّ الله خَبيرٌ بما يَصْنَعُون ﴾ [النور : ٣٠] . يا بنيّ : « إن الشيطانَ يَجرِي مِنَ ابنِ آدمَ مجرَى الدم »[1] . والنساء حبائلُ الشيطانِ وشَرَكه الذي يصطاد به ضِعَاف القلوب .

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود عن أنس بن مالك . ورواه البخاري ومسلم وابو داود وابن ماجه عن صفية .

أقول : هذا الحديث لم يروه البخاري من حديث أنس ، وإنما رواه أحمد (٣/١٥٦ و ٢٨٥) ومسلم رقم (٢١٧٤) وأبو داود رقم (٤٧١٩) ورواه من حديث صفية البخاري (١٩٣٣ و ١٩٣٤ و ٢٩٣٤ و ٣١٠٧ و ٥٨٦٥ و ٦٧٥٠) ومسلم رقم (٢٩٧) وأحمد (٦/٣٣٧) والموطأ (١/٣١٢) والترمذي رقم (٨٠٤) وأبو داودرقم (٢٤٦٧) و (٢٤٦٨) و (٢٤٦٩) والنسائي (١/١٩٣) ورواه من حديث جابر أحمد في المسند (٣/٣٠٩) والترمذي رقم (١١٧٢) .

فإياك ـ يا بني ـ أن يستهويَك الشيطانُ بمكره ، فتقع في أكبرِ الخطايا ، وأنكرِ المنكراتِ .

يا بنيّ : تذَكَّر قوْلَ الله تعالى في كتابه العزيز : ﴿ ولا تَقرَبُوا الزِّنا ، إنَّهُ كانَ فاحِشَةً وسَاءَ سَبيلا ﴾ .
[الإسراء : ٣٢]

يا بنيّ : وصيتي لك أن تحترسَ مِنْ غِوَاية الشيطان ، ومِنَ الشهوات الخبيثة ، فإن الله مطَّلِعٌ عليك في خلوتك ومُحاسِبُكَ على عملك .

يا بنيّ : اقبل نصيحتي هذه ، واذكرها كُلَّما عرض لك خاطر سوءٍ من الخطرات الشهوانية ، واستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، وتوجَّه إلى الله بعزيمة صادقة ، واسأله النجاة من كيدِ الشيطان وغُروره ، والله يتولاكَ ـ يا بني ـ بحفظه ورعايته .

الدرس الخامس عشر
في المروءة والشهامة وعِزَّة النفس

يا بنيّ : لا خيرَ في المرء إذا كان قليل المروءة ، دَنيء الهمة ، وَضيعَ النفس ، مُبْتَذَلاً بين قومه وعشيرته ، إذا أُهينَ تصاغرَ وتذلَّل ، وإذا احتُقِر كان جباناً في موضوع الدفاع عن كرامة نفسه .

أمثال هؤلاء - يا بني - ليسوا أهلاً لأن يتشرَّفوا بالانتساب إلى طلبة العلوم الدينية ، ولا أن يكونوا من حَمَلَةِ الشريعة الإسلامية .

فيا بنيّ : احتفظ بمروءتك ، ولا تَضَعْ نفسَك في غير موضعها ، احترسْ من مخالطة السَّفَلة ، ومِن معاشرة اللِّئام ، وترَفَّعْ عن الدنايا ، ولا تكن عبداً لبطنك ، ولا عبداً لشهواتك .

يا بني : الفقر من المالَ لا يُعَدُّ في عيوب الرجال .
يُعابُ المرءُ بقلَّةِ مروءته ، لا بقلَّة ثروته ، ويُحمد على

جميل فعاله ، لا على كثرة ماله .

من المروءة أن تصون ماءَ وجهك عن ذُلِّ السؤال ، راضياً بعَيْشِ الكفاف ، وبحسبك لُقيْماتٌ يُقِمْنَ صلبك[1] فلا تجعل لأحد عليك مِنّةً في الحصول على شيءٍ من لَذَّتك الفانية .

ومن المروءة أن تنظر إلى ذوي الحاجات من إخوانك نظرة الاحترام ونظرة الإشفاق .

ومن المروءة إذا ساعدتَ أحدَ إخوانك بشيء من مالكَ أن لا تجعل ذلك وسيلةً إلى إذلاله واحتقاره .

يا بنيّ : من الشهامة أن تَعْفُوَ عمن ظلمك وأنت قادرٌ على الانتقام منه ، وتحسنَ إلى من أساء إليك وأنت

---

(١) في الحديث الشريف عن النبي ﷺ قال : « ماملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه . بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه : فإن كان لامحالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » . رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث المقدام بن معد يكرب .

أقول : تقدم تخريجه صفحة (٣٥) .

أقوى منه على الإساءة ، ومن الشهامة أن تقولَ كلمة الحقّ ولو على نفسك ، ومن الشهامة أن تحافظَ على كرامتك وإن كنت فقيراً مُعدَماً .

يا بنيّ : من لم يكن عزيزاً في نفسه لا يستفيد بالمال ولا بغيره عِزّاً . عِزُّ النفس أفضلُ وأشرفُ من العزّ بالمال ، فمِن عِزَّة النفس أن تتَجمَّلَ بين الناس وإن كنت فقيراً ، ومن عِزَّة النفس أن لا تبوح باحتياجك لأحدٍ مهما كانت منزلته عندك ، ومن عِزَّة النفس أن تصبر على مضض العيش صبر الكِرام ، وأن لا ترفع حاجتك إلى غير مولاك .

يا بنيّ : من عِزَّة النفس ومن المروءة والشهامة أن لا تحمل الضيم والإذلالَ لنفسك ، ولا لأحد من إخوانك ، ولا لأحد من أبناء مِلَّتك، ولا لوطنك الذي من طينته خلقتَ ، وتحت سمائه تربَّيت . قال رسول الله ﷺ : « المؤمِن للمؤمِن كالبنيان يُشُّد بعْضُهُ بعْضاً [1] » .

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري .
أقول : تقدم تخريجه صفحة (٤٩) .

الدرس السَّادس عشر

في الغيبة والنميمة والحقد والحسد والكبر والغرور

يا بنيّ : من الأخلاق الذميمة أن تذكر أخاك في غَيبتِه بما يكره أن يسمعه بأذنه .

يا بنيّ : لكل إنسان عَيبٌ ، فكما لا تحبُّ ذِكرَ عُيوبك في غَيْبتك ، يجبُ أن تصونَ لسانك عن عيوب الناس في غَيْبتهم ، فاجتنب الغِيبة يا بني ، واجتنب نظيرتها في الخبث ، وهي : النميمة ، فلا تسْعَ بالفساد بين الناس . لا تقُل لأحد إخوانك : إن فلاناً قال فيك كذا وكذا ، وفلاناً رماك بكذا .

يا بنيّ : الغِيبة والنميمة من أخلاق الأدنياء وأخلاق اللئام ، لا من أخلاق طلاب العلوم الدينية ، فلا تدنِّسْ نفسك بهذه الأخلاق الذَّميمة . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كثِيراً مِنَ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظنِّ إثْمٌ . ولا تَجَسّسُوا ، ولا يَغْتَبْ بعْضُكم بَعْضاً ، أَيُحِبُّ أَحَدُكم أَنْ

يأكلَ لحمَ أَخِيهِ مَيْتاً ؟ فكرِهْتُمُوهُ * واتقوا الله إنَّ الله تَوَّابٌ رَحيمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] .

يا بنيّ : لا تحسُد أخاك على نعمةٍ أنعم الله بها عليه دونك ، فلو شاء ربك لأعطاك كما أعطاه .

يا بنيّ : لا يستفيدُ الحسودُ من حسده إلا العداوةَ والبغضاء ، إنك إذا حسدتَ أخاك أبغضكَ وعاداك ، وأبغضك لهذا الخُلُق الذميمِ كلُّ مَن عَرَفَكَ ، فدعِ الحسدَ ـ يا بني ـ ودَعِ الحِقد على إخوانك وعلى الناس كافة ، لا تُضْمِرْ لأحَدٍ سُوءاً ، وإذا أساء إليك إنسانٌ ثم اعتذرَ فقابل مَعذِرَتهُ بالقبول ، وامحُ من قلبك حُب الانتقام منه .

يا بنيّ : كن سليمَ الصدر من حبِّ الأذى يتَوَدّدْ إليك الناسُ ، ويحبوك .

يا بنيّ : الحِقدُ والحسد خُلُقانِ خبيثانِ لا يضرّانِ إلا صاحبَهما . فلا الحسد ينقل إليك نعمة مَنْ حَسَدْتَهُ . ولا الحِقد بضارّ من أضمرتَ له السوء إلا أن يشاءَ الله .

ولكنك إذا كنتَ حسوداً حقوداً : يكادُ يلتهب قلبُك من الغَيْظ ليلَكَ ونهارَكَ .

يا بنيّ : إذا أنعم الله عليك بنعمة ، فاشكره ولا تتكبَّر على خَلْقِه . فإن الذي وهبك هذه النعمة قادر على سلبها منك ، وإن الذي حَرَمَ غيركَ قادرٌ على إعطائه ضعف ما أعطاك ، فلا تتعرَّض لغضب الله تعالى بالتكبُّر على خلقه ، فإن الله لا يحب المتكبِّرين .

يا بنيّ : لايَحْمِلنَّكَ الغرور بما أعطاك الله على نسيان عبوديَّتك لمولاك ، وأنك واحد من مخلوقاته ، لا فضل لك على أحد منهم عند الله إلا بالتقوى ، ﴿ يا أيَّها النَّاسُ إنا خلقناكم مِنْ ذكرٍ وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارَفوا إنّ أكرمَكم عندَ الله أتقاكم . إنَّ الله عَلِيمٌ خبيرٌ ﴾ .[الحجرات : ١٣]

الدرس السابع عشر
في التوبة والخوف والرجاء والصبر مع الشكر

يا بنيّ : العصمة من الذنوب والخطايا : ليست إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإذا قُدِّر عليك الوقوعُ في خطيئة من الخطايا، فبادر بالتوبة إلى الله تعالى ، واستغفرْ ربك إنّه كان غفّاراً . يابنيّ : التوبة من الذنب ليست مجرّد كلمةٍ تقولها بلسانك ، ولكنَّ التوبة على الحقيقة : اعترافُك بين يديْ مولاك بالخطيئة التي وقعتْ منك ، واعترافُك بأنك مذنب مستحق للعقوبة التي قدَّرها الله لهذا الذنب ، وأن تشعر بالحزن والندم على ما فَرَطَ منك ، وأن تُعَاهِدَ الله على أن لاتعودلمثله أبداً، ثم ابتهلْ إلى الله أن يصفح عنك فيما سلف ، فإن شاء عفا عنك ، وإن شاء عاقبك .

هذه ـ يابني ـ حقيقة التوبة والاستغفار ، لا أن تقول بلسانك « تبت إلى الله » وأنت مُصِرٌّ على مخالفة مولاك .

إن التوبة باللسان بدون ندم ولا إقلاع عن الذنب، خطيئة أخرى تستحق عليها العقوبة .

يابنيّ : انظر إلى نفسك مع أبيك أو أستاذك إذا أمرك بالمواظبة على الدرس فأهملتَ، وأراد عقوبتك فقلت « إني تائب » هل تَصِح توبتك وأنت لاهٍ عن دروسك ؟ أليست هذه التوبة من الأكاذيب التي تستحقُّ عليها عقوبةً أخرى ؟

يابني : الخوف من الله يحُول بين المرء وذنبه ، فمن اشتد خوفُه من ربه ، فَقلَّما يقترف خطيئةً من الخطايا .

فخَفِ الله - يابني - خوفاً يحول بينك وبين مخالفة أمره ، ولا تيأس من رَوْحِ الله إذا فَرَطَتْ منك خطيئة ، وابتهلْ إلى الله في سِرِّك وجهرك ، واسأله العفوَ والمغفرةَ إنَّ ربك غفورٌ رحيم .

يابني : إذا أصابتك مصيبة في نفسك أو مالك ، أو في عزيز عندك ، فاصبرْ واحْتَسِبْ أجرك عند الله ، وقابل قضاءَ الله وَقَدَرَهُ بالرضا والقبول ، واشكر مولاك على

لطفه بك وإحسانه إليك ، إذْ لم يضاعف المصيبة عليك ، واسأله اللُّطْفَ في القضاء والقدر ، وقل : اللهم إني لا أسألك ردّ القضاء، ولكن أسألك اللطف فيه .

يابنيّ : لو اطَّلَعْتَ على الغيب لاخْتَرْتَ صُنْعَ الله بك ، فما من مصيبةٍ إلا وعندَ الله أَعْظَمُ منها ، فلا تنازع الأقدار ، ولا تعترض على مولاك ، فإنه الفعال لما يريد ، ولا رادّ لقضائه ، ولا مُعَقِّبَ لحكمه ، يفعل ما يشاءُ ، وهو الحكيم الخبير .

الدرس الثامن عشر

في فضيلة العمل والكسب مع التوكل والزهد

يابنيّ : تعلَّم العلم لِتَعْمَلَ به في نفسك ، ولتعلّمَهُ للناسِ وتحملَهم على العمل به . وتعلَّم العلمَ لِتُحْسِنَ بعلمك تدبيرَ حياتك وطريقَ معاشك ومعادك ، فما تعلمتَ ليكون العلم غُلاًّ في عنقك ، ولاقيداً في

رِجْلك ، يمنعك السّعيَ ؛ ويحول بينك وبين أسباب معاشك .

يا بنيّ : العالِمُ أولى أن يكون قُدْوةً للناس في اكتساب المال من وجوه الحلِّ ، لإنفاقه في وجوه البِرِّ . هذا هو العالِم الذي يُشرِق نور علمه على العامَّة ، فيهتدون بهَدْيه إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا استدان ، وإذا زرع ، وإذا اتَّجر ، وإذا أنفق .

يابنيّ : لاعَيْب على طالب العلم إذا عمل في مزرعته أو مزرعة أبيه بنفسه ، إنما العيب كلّ العيب أن يكون كَلاًّ على الناس، يترقَّبُ الصدقات ، وينتظر فَضْلَةَ أصحابِ المروءات .

يابنيّ : كان النبيُّ ﷺ يرعى الغنم قبل البعثةَ ، ثم كان يَتَّجر حتى بُعِثَ ، وما زال كذلك حتى كان رِزقه تحتَ ظِلِّ رمحه (١) . وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه

---

(١) روى الإمام أحمد والبخاري وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم . فقال =

تاجراً حتى اسْتُخْلِفَ ، وكذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم من السلف الصالح ، فما منعهم العلم عن مزاحمة الناس في كسب الحلال ، بل كانوا قُدْوَةً حسنة في وجوه الكسب .

= أصحابه : وأنت ؟ قال : نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » . وأما التجارة فقد ثبت في السيرة والأحاديث الصحيحة أنه الصلاة والسلام كان يتجر لخديجة في مالها قبل البعثة . وروى الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة . حتى يعبد الله وحده لاشريك له . وجعل رزقي تحت ظل رمحي » .

أقول : أما رواية أحمد في المسند (٣/٣٢٦) فليست من حديث أبي هريرة ، وإنما هي من حديث جابر بلفظ : كنا مع رسول الله ﷺ فقلنا : وكنت ترعى الغنم يا رسول الله ؟ قال : نعم ، وهل من نبي إلا قد رعاها . ورواية البخاري (٤ / ٣٦٣)(في الإجارة ، باب رعي الغنم على قراريط هي من حديث أبي هريرة ، ورواه أيضاً ابن ماجه رقم (٢١٤٩) وأما عمله مع عمه أبي طالب بالتجارة ، وتجارته بمال خديجة رضي الله عنها ، فذلك مشهور معروف ، وأما حديث « بعثت بالسيف بين يدي الساعة . . . » الخ فقد

يابنيّ : إنك ستطّلع على كثير من الأحكام الشرعية ، في البيع والرهن والإجارة والمضاربة والمزارعة ونحوها : فاعمل بما تعلم ، وعلّم الناسَ يضاعِفِ الله لك الأجر على علمك وعملك .

إياك - يابني - أن تظنّ كما يظنّ بعض الأغبياء أن التوكل على الله هو ترك العمل والاستسلامُ للأقدار . إن الزارع الذي يحرث أرضه ويعمل فيها بنفسه ليلاً ونهاراً ، مِنْ أفضل المتوكلين على الله إذا حسُنَت نِيَّتُه ، فإنه وضع

رواه أحمد في المسند (٢/ ٥٠ و ٩٢) وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣٦٣) وسنده حسن ، وجود إسناده ابن تيمية في (اقتضاء الصراط المستقيم) صفحة (٨٢) وصححه الحافظ العراقي في الإحياء ، وحسنه الحافظ ابن حجر في « الفتح » (٦/ ٧٢) وأخرج الجملة الأخيرة منه أبو داود رقم (٤٠٣١) وله شاهد من حديث حذيفة ، انظر « مجمع الزوائد » (١٠/ ٢٧١) وعلق طرفا منه البخاري في صحيحه (٦/ ٧٢) وله شاهد مرسل بسند حسن أخرجه ابن أبي شيبة من طريق الأوزاعي عن سعيد بن جبلة عن طاوس (٥/ ٣٢٢) عن النبي ﷺ بتمامه .

الحبَّة في بطن الأرض ، وأحسن عمله ، وفوّض الأمر إلى ربه ، فإن شاء أنبتَتْ سبع سَنابلَ في كل سنبلةٍ مائةُ حَبّةٍ . وإن شاء أماتها فلم تُنبت شيئاً .

يابني : ليس الزهدُ ترك العملَ ، ولكنَّ الزهدَ أن يَخْرج حُبُّ الدنيا من قلبك ، وإذا اكتسبت أكثرَ من حاجتك واسَيْتَ الضعفاءَ ، وتصدَّقت على الفقراء . ولم يدفعْك الحرص وحبُّ الاستكثار إلى طلب الدنيا من غير الوجوه التي أحلَّها الله لعباده .

فيا بنيّ : ﴿ ابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ الله الدَّارَ الآخِرَة ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وأَحْسِنْ كما أَحْسَنَ الله إليْكَ ، ولا تَبْغِ الفَسَادَ في الأرْضِ . إنّ الله لا يحِبُّ المُفْسِدِينَ ﴾ .[القصص : ٧٧]

الدرس التاسع عشر

في إخلاص النية لله تعالى في جميع الأعمال

يابني : « إنما الأعمال بالنِّيَّات ، وإنما لكلّ امْرِئٍ مانوى [1] » إن الذي يترك الأكل والشرب من طلوع الفجر إلى غروب الشمس بنيَّةِ الصومِ كالذي يتركهما لأنه

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ .

أقول : رواه البخاري (١/ ٩ ـ ١٥) في بدء الوحي وقد ذكره البخاري في سبعة مواضع من كتابه ، ومسلم رقم (١٩٠٧) في الإمارة ، باب قوله ﷺ(إنما الأعمال بالنِّية) . ورواه أبو داود رقم (٢٢٠١) والترمذي رقم (١٦٤٧) والنسائي (١/ ٥٩ ـ ٦٠) كلهم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه . قال الحفاظ : ولم يصح هذا الحديث إلا من رواية عمر بن الخطاب ، ولا عن عمر إلا من رواية علقمة بن وقاص ، ولا عن علقمة إلا من رواية محمد بن إبراهيم التيمي ، ولا عن محمد بن إبراهيم التيمي إلا عن رواية يحيى بن سعيد الأنصاري ، وعن يحيى انتشر ، فرواه عنه أكثر من مائتي إنسان أكثرهم أئمة .

لم يجدهما ، لكن الأول له أجر الصائم ، والثاني ليس له ذلك الأجرُ . فأخلص النيةَ لمولاك -يابني- في جميع أعمالك . تفقَّهْ في الدِّين بنية الوقوف عند حدود الله فيما أحلَّ وحرَّم ، فما كان حراماً اجتنبْهُ ، لأن الله نهاك عنه ، وما كان واجباً فعلته ، لأن الله أمرك به . وتعلَّم علوم اللغة العربية لِتقوى على إدراك الحِكم والمواعظ التي استودعها الله تعالى في كتابه الكريم ، وأجراها على لسان رسوله ﷺ فيما صَحَّت روايته عنه . وتعلَّم العلومَ العقليةَ لتَقْوى بها حُجَّتُك ، وتستضيءَ بصيرتك في نصرة دين الله وإرشاد الخلق إلى سبيل الهدى .

يابنيّ : اجعل أعمالكَ كلها لخدمة مولاك الذي خلقك وسَوّاك ، لا تطلب بها غيرَ وجه ربِّك .

اتركِ الشرَّ ، لأن الله تعالى أمرك بتركه ، وافعل الخيرَ ، لأن الله تعالى أمرك بفعله .

الزَمِ الأدبَ مع إخوانك ، لأن الله تعالى أمرك به ، لالأن مخلوقاً مثلك يعاقبك على تركه .

لاتتعدّ على حقوق العباد ، لأن الله تعالى نهاك عن العدوان ، لالأنك إذا تعدّيتَ على الحقوق تُحاكم ويُقضى عليك بردّها لأهلها .

لاتـخُن أحداً من خلق الله ، لأن الله تعالى نهاك عن الخيانة ، لا خوفاً من عقوبة مخلوق مثلِك .

أطع أباك وأمك، لأن الله تعالى أمرك بطاعتهما . لاخَشْيَةَ أن تنقطع النفقة عنك إذا عصيتهما .

أطع الحكام وأولياء الأمورِ لأن الله تعالى أمرك بطاعتهم ، لا طمعاً في علوِّ المنزلة عندهم ، ولا خوفاً من سطوتهم وبطشهم .

أشفِقْ على الضعفاء والمرضى واليتامى والمساكين لأن الله تعالى أمرك بالإشفاق عليهم . لا ليقول الناس عنك إنك من المحسنين .

احذر أعداءك وأعداء قومك، لأن الله تعالى أمرك بالحذر منهم ، لا حُبًّا في الانتقام ممن يعاديك .

اجتهد أن تكون أعمالك كلها في خدمة مِلَّتك وأبناء

وطنك طمعاً في رضوان الله وطلباً للأجر عند ربك ، لارغبةً في الشهرة وجمع الدنيا . وفّقك الله وأرشدك إلى ما فيه صلاح دنياك وآخرتك .

الدرس العشرون
في خاتمة الوصايا

يابني : أكثِرْ من مُدارسة القرآن ، واحفظ آياته الشريفة عن ظهر قلبك ، وإذا قرأت القرآن فلا تقرأهُ وأنت غافل عن معناه ، وإذا أشكل عليك فهم آية فارجع إلى كتب التفسير أو إلى أحد العلماء تتعلم معناها .

يابني : شَتَّان بين من يقرأ ولا يفهم معنى ما يقرؤه ، وبين من يقرأ ومعاني القرآن الكريم حاضرةٌ لديه : الأول كالأعمى يمشي في الطريق لايبصر منها شيئاً ، والثاني كصاحب البصر يتّقي ببصرهِ مواقع الزلل .

يابني : رُبَّ قارئٍ للقرآنِ والقرآنُ يلعنُهُ فما أنزل

الله الكتاب العزيزَ لمجرد التلاوة بلا فهم ، ولا لتلاوته مع فهم معناه فقط . ولكن أنزله لامتثال ما أَمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، وللتخلق بما تضمنته آياتُه الشريفة من الأخلاق الكريمة ، فاقرأ القرآن بقصد امتثال أمره واجتناب نهيه ، والتخلق بأخلاقه .

يابنيّ : حاسبْ نفسكَ على ما فعلت قبل أن يحاسبَكَ مولاك ، فإذا خلوتَ بنفسك عند النوم ، فاذكر ما صَنَعْتَ في يومك وليلتك ، فإن رأيت خيراً فاحمد الله على توفيقه ، وإن رأيتَ شرًّا فافزع إلى التوبة والندم ، وعاهدْ مولاك على أن لاتعود ، واستغفر ربك كثيراً ، لعل الله يقبل توبتك ويغفر لك ما تقدَّم من ذنبك .

يابني : أكثر من الابتهال إلى الله ، والدعواتِ الصالحاتِ لنفسك ولأبويك ولإخوانك المؤمنين . وقل(رَبِّ اجْعلني مُقِيم الصّلاةِ ومِنْ ذُرِّيتي ، رَبَنا وتَقَبَّلْ دُعاءِ ، رَبَنا اغْفِرْ لِي ولِوالِدَيّ ولِلْمؤمِنينَ يَوْمَ يَقُومُ الحسابُ) [إبراهيم : ٤٠ و٤١]

اللهمَّ برحمتك عُمَّنا ، واكفنا شَرَّما أهمَّنا ، وعلى الإيمان الكامل والكتابِ والسُّنَّةِ توفَّنا وأنت راضٍ عنّا ، اغفر اللهم لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولإخواننا في الله تعالى أحياءً وأمواتاً ، ولكافة المسلمين أجمعين . ﴿ سُبْحانَ رَبِّك رَبِّ الْعِزَّةِ عمّا يَصِفونَ . وسَلامٌ عَلى الْـمُرْسَلينَ . والحَمْدُ لله رَبِّ العالَمينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠-١٨٢] .

وكان الفراغ من تحريره في شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٣٢٦ هجرية . على يد أفقر العباد وأحوجهم إلى رحمة مولاه محمد شاكر : شيخ علماء الإسكندرية والحمد لله أولاً وآخراً .



فهرس الموضوعات